(١٤)

كل مواطن مصرى محترم
لابد أن يكون رجلا حضاريا *

قلت دائما فى كل زمان أن مصر أصبحت اليوم دولة مستقلة استقلالا حقيقيا وإنها اليوم صاحبة مركز قيادى فى الشرق الأوسط وهو مركزها الذى تعتز به، وإنها لابد قد بذلت جهدًا عظيمًا لكى تصل إلى هذا المركز المتاز وأنت كمواطن مصرى ومهما كانت الوظيفة التى تحتلها فإنك لابد قد ساهمت فى بناء هذا الوطن العزيز وأريد أن أقول لك فى هذا المقال ما ينبغى عليك أن تفعله لكى تستمر مساهمتك فى بناء هذا الوطن العزيز الجليل فلا شىء مثل هذا يمكن أن يأتى عفوا، ولا يمكن أن يستمر عفوا، فإن كل بلد من بلاد الدنيا مهما كان مركزه هو من بناء مواطنيه.

ونحن نحب مصر.. كل المصريين يحبون مصر، لأنها بلد جدير بالحب فعلا فهى صغيرة المساحة فعلا، ولكن المساحة هنا لا تهم، المهم هم المواطنون المصريون ومعظمهم فلاحون أى أبناء فلاحين، والفلاح المصرى رجل متحضر وبانى حضارات هكذا عرفناه من أقدم العصور ونحن اليوم نتحدث كثيرا عن على باشا مبارك وهو من رجال عصر محمد على باشا ومن بناه مصر الحديثة، ولد على باشا مبارك فى قرية برمبال الجديدة بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م فى أسرة متوسطة الحال معروفة بالتدين والصلاح مثل كل قرى مصر، وكان جده الأكبر إمام القرية وخطيبها وقاضيها وكان الشيخ على مبارك قد تعلم الدين واللغة العربية فى قريته برمبال، ودرس فى دكرنس والمنصورة وأظهر نباهة ومهارة فى دراسته الأزهرية واصبح شيخا ماهرا وعاش فى عرب السماعنه بالشرقية، وأصبح إماما فى هؤلاء العرب وحفظ القرآن فى سنتين وكان

---

* نشرت هذه المقالة فى ٩ يناير ١٩٩٤م

مجتهدا واسع الذكاء ولكن شيخه المعجب به كان قاسيا فى معاملته فترك العمل معه، واشتغل مدرسا خاصا، وكان يكسب قليلا جدا ثم شاء القدر أن يتعرف على أحد مأمورى الأزهر، وكان رجلاً شفيقاً حسن المعاملة، وقد عمل عنده على مبارك مدرسا لأولاد الناس الطيبيين وهناك عطف عليه أحد مأمورى الزراعة ورغب فى تعيينه فى وظيفة صغيرة بمرتب بسيط، ولكن على مبارك لم يشأ أن يقبل الوظيفة التى عرضت عليه خوفا من الظروف وفضل أن يكون حرا يكسب ما يستطيع كسبه وقال عن نفسه فيما بعد إنه رغب فى أن يكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها، وهذا يدلنا على أن على مبارك كان على نصيب كبير من عزة النفس وإباء الظلم، ولكن عزة النفس هذه تخلت عن على مبارك بعد أن دخل الوزارة وأصبح موظفا وهذه هى طبيعة الوظائف فى ذاتها فأنت تتولى الوزارة وتصبح رجلاً هامًا تأمر وتنهى ولكنك إذا توليت الوزارة أحبتك وأحببتها ولكنك تركت كرامتك وعزة نفسك على الباب لأن الوزير لابد أن يكون مطيعا لأولئك الذين ينشئون الوزارات وليس عندنا وزير يقنع بأن يكون وزيرا مرة واحدة لأنه بعد أن يذوق عزة الوزارة وجمالها يرغب أن يكون وزيرا إلى الأبد وعلى مبارك الذى بدأ حياته مدرسا وفضل أن يترك الوظائف وخرج إلى الطريق واشتغل بنفسه وعانى الفقر لكى يعيش حرا (بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها) اشتهر اسمه كمدرس حر وأرسله محمد على باشا إلى أوروبا مدرسا لأعضاء البعثات فدرس معهم وأظهر ذكاء وإخلاصا فى الدراسة وعندما عاد إلى مصر أدخله محمد على فى الموظفين ونجح فى الوظائف وارتقى حتى أصبح وزيرا للمعارف أى التعليم وأظهر مهارة كبرى فى عمله الوزارى، والجميل فى حياة على مبارك هو حبه للعلم ونجاحه فى التعليم ومن أدلة ذلك أنهم عينوه فى فجر شبابه تلميذا فى مكتب أنشأه محمد على بميت العز، فقضى سنة فى مكتب ميت العز وتبين ذكاؤه وحسن استعداده فاختاروه لدخول مدرسة قصر العينى وكانت المدرسة العليا الوحيدة فى مصر وكانت مدرسة ميت العز تقع فى أبى زعبل

فى شمال القاهرة، وقد دخل على مبارك مدرسة أبى زعبل، وأحس على مبارك بميل عظيم للدراسة فدرس الهندسة وتفوق فيها بفضل ناظرها الذى كان نابغة فى شرح الهندسة بطريقة تستسيغها عقول التلاميذ وقد دخل على مبارك مدرسة قصر العينى سنة ١٨٣٦م وفى سنة ١٨٣٩م كان على مبارك أحد أذكياء التلاميذ الذين درسوا فى هذه المدرسة ونجح على مبارك فى دراسته للهندسة، ومن هناك اختاروه مدرسا لبعثة الأنجال سنة ١٨٣٩م وكان طلابها من أولاد العز والبيوت الكبار ومنهم الكثير من أفراد أسرة محمد على ومنهم الخديو إسماعيل ووصلت البعثة إلى باريس سنة ١٨٤٤م لتعلم الفنون الحربية، وبعد سنتين فى هذه المدرسة نقل على مبارك إلى مدرسة المدفعية والهندسة فى مدينة متز METZ فى فرنسا ورقى إلى وظيفة ملازم ثان وأصبح من أبرع المهندسين المصريين فى دراسة الهندسة، وكان إبراهيم بن محمد على يحبه ويقدره ولو عاش إبراهيم لتغيرت حياة على مبارك تغيرا حاسما فلما جاء الخديو عباس ألغى البعثات وعاد على مبارك إلى مصر وعين على مبارك مدرسا بمدرسة طرة الحربية، ونال درجة صاغ، واشترك على مبارك مع موجيل بك الفرنسى كبير مهندسى القناطر الخيرية فى وضع نظام لمرور السفن من القناطر الخيرية وقد أعجب به الخديو عباس فرقاه إلى رتبة أمير الاى وعينه ناظرا لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس، وكلفه بوضع نظام للتعليم فى مدرسة المعزوزة واختيار مدرسيها وما يدرس فيها من الكتب وقد نجح على مبارك نجاحا عظيما وأثبت مقدرة عظيمة فى رفع مستوى المدارس التى عهد إليه فى إدارتها وكان يقوم بتدريس الطبيعة والعمارة فى المدارس ويؤلف الكتب المدرسية وبلغ به الاهتمام بإفادة المدارس أن أنشأ مطبعة طبع فيها الكثير مما يلزم للمدارس الحربية وفرق الجيش واهتم اهتمامًا كبيرا بمأكل التلاميذ ومشربهم وملبسهم وحث المعلمين على حسن معاملة التلاميذ حتى كاد الضرب والسجن وأمثالهما تختفى من المدارس ولا غرابة فى ذلك فقد كان بطبيعته يكره الضرب والحبس فى التعليم من بداية

حياته التعليمية، ولما جاء الخديو سعيد أمر على مبارك بالمساهمة فى حرب القرم سنة ١٨٥٤م وفى هذه المناسبة درس على مبارك اللغة التركية.

ولما عاد من حرب القرم قضى بضع سنوات بعيدا عن الوظائف واشتغل بالتجارة وربح منها وكان يبنى المدارس والبيوت ويكسب الكثير وفى هذه الفترة وعندما تولى إسماعيل الحكم وكان صديقا لعلى مبارك من أيام الدراسة فى باريس أكرمه وعينه إسماعيل ناظرا على القناطر الخيرية فأظهر مهارة عظيمة فى توزيع الماء بين فرعى رشيد ودمياط وكان من سبقه من الموظفين يجتمعون على أن محاولة توزيع المياه تؤدى حتما إلى خلل فى بناء القناطر، ولكن على مبارك نجح فى ذلك، وأنشأ قناطر رياح المنوفية ومبانيها.

وإلى جانب عمله فى هذه المبانى عينه الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٧م وكيلا لوزارة المعارف والأشغال وكانت الوظيفة تسمى ديوان المدارس، وتولاها ونجح فيها وبعد سنة من عمله فى إدارة المدارس نقل إلى ديوان الأوقاف وأنعم عليه برتبة الباشوية ونجح فى كل عمل تولاه واشتهر بالكفاءة والجلد وقوة الإرادة والنزاهة، وقد نقل إدارة المدارس من العباسية إلى درب الجماميز واحتلت إدارة التعليم قصر الأمير مصطفى فاضل أخى الأمير طوسون بن محمد على تيسيرا على التلاميذ وأهاليهم. وقد اشتهر هذا القصر فيما بعد عندما احتلته المدرسة الخديوية، وإلى جانب إدارة التعليم ونقل إلى هذا المبنى وزارتا المعارف والأشغال واشتهر على مبارك بالاجتهاد العظيم فى عمله وهو صاحب الفضل فى لائحة ١٠ رجب من عام ١٢٤٨هـ التى نظمت المدارس وأصدر الخديو هذه اللائحة فى سنة ١٨٦٨م، وهدفها توحيد نظم التعليم فى القطر كله وقسمت المدارس إلى ابتدائية وثانوية وعالية.

ولم تعرف مصر إلا القليلين جدا من الممتازين من رجال التعليم ولما كان على مبارك باشا ناظرا للمعارف وديوان الأوقاف فى وقت واحد استطاع

إصلاح عدد من الأماكن الموقوفة وجعلها مدارس بدلا من بقائها خرائب معدومة الفائدة وعمد كذلك إلى معاهد التعليم الموقوفة فحولها إلى مدارس نظامية وأحسن القيام إلى الأوقاف الخيرية وأنفق جزءا من إيرادها على التعليم، ومن كل ذلك نرى اهتمام هذا الرجل بالتعليم فى مصر.

وكان يلجأ فى عمله والتماس كل فرصة لاستنباط موارد جديدة لأنه كان رجلا حديث الفكر، وكان يرى بنظره البعيد أن الحكومة قد تضطرها ظروفها فى بعض الأحيان إلى أن تغل يدها على إمداد المدارس بكل ما يلزم لها من مال، وجهود على مبارك هى التى لفتت أنظار ذوى اليسار من الناس إلى دفع مصروفات قليلة لأبنائهم الذين كانوا يدرسون فى المدارس أى دون أن يضطر أحد إلى ذلك إلى دفع نفقات التعليم وبحسب قدرتهم المالية مع استمرار غير القادرين على التعليم بالمجان، وكان يختار لتدريس اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة نوابغ المتخرجين فى المدارس العالية الحديثة كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة والحقوق فيجعلهم معدين لدروس المعلمين فترة من الزمن حتى إذا تمرسوا فى التعليم وتمكنوا من مواردهم صاروا مدرسين مستقلين، وكان يحسن الانتفاع برجال التعليم الأجانب الذين كانوا يعملون فى مصر، ومثال ذلك استخدامه لدروبك السويسرى مفتشا عاما للمدارس لإدخال الإصلاحات مدارس الحكومة لكى تصبح معادلة للمدارس الأجنبية التى كثرت فى مصر فى عصر محمد على وخلفائه، وأصبح للمعارف ديوان خاص مستقل بشئون التعليم.

وعلى مبارك هو الذى يفكر فى مشروع مدرسة دار العلوم المشهورة وكان مركزها الذى اختاره لها هو دار الأمير مصطفى فاضل، إدارة المدرسة الخديوية. وقد اتجه إلى تعليم البنات فأنشأ المدرسة السنية بحى السيدة زينب وكانت أول الأمر بحى السيوفية وقد ساعدته فى ذلك السيدة سنية زوجة الخديو الثالثة وقد اشتهرت باسم المدرسة السنية وكانت أول دار حديثة لتعليم البنات فى مصر والعالم العربى.

ولم يدع الرجل بابا من أبواب التعليم والثقافة إلا وضع يده فيه وأنتج إنتاجًا طيبًا، وقد كان من جهده فى التعليم أن زاد عدد المتعلمين زيادة

كبيرة ما بين مدرسين وطلاب وازدادت حاجة الناس إلى الكتب، والكتب كانت موجودة فى مصر من قديم الزمان، ولكنها لم تكن فى مكان واحد وهنا نجد على مبارك يفكر فى إنشاء الكتب خانة أى دار الكتب، وكانت الحكومة قد أنشأت ثلاث صحف، إحداها الصحيفة الرسمية وهى الوقائع المصرية والثانية صحيفة حربية تصدر عن الجيش، والثالثة صحيفة علمية عمل فيها أمهر الكتاب، وكان على مبارك قد عرف صحيفة الدولة الفرنسية، وهى دار الكتب الأهلية فأنشأ دار الكتب المصرية سنة ١٨٧١م وبنى لها مبنى جميلا فى باب الخلق، وكانت تشغل الميدان كله وتطل على شارع محمد على من ناحية وعلى محكمة الاستئناف من ناحية أخرى، وكان بيت على مبارك أى مسكنه يطل على دار الكتب من ناحية باب الخلق، وكانت فى أول إنشائها فى قصر مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز وهذا هو مبنى المدرسة الخديوية بدرب الجماميز، وقد جمع فيها على مبارك كل ما استطاع جمعه من الكتب العربية وأضاف إليها كتبا كثيرة غير عربية وإزدادت حاجة الناس إلى الكتب فأنشئت المطبعة الأميرية، وكانت الدار فى أول أمرها وقبل بناء دار الكتب فى بولاق، واسس إسماعيل باشا دار الكتب فيها وأنشأ قريبا منها مصنعا للورق بقربها، وصاحب الفكرة فى إنشاء مصنع الورق مبنى دار الكتب هو إسماعيل باشا، ولكن التنفيذ كان على يد على باشا مبارك. ولم يكتف على مبارك بتنفيذ مشروعات التعليم بل وجد وقتا لتأليف الكتب، وأشهر كتبه (الخطط التوفيقية) نسبة إلى الخديو توفيق، وتبلغ عدد أجزائه عشرين مجلدا.

وتوفى على مبارك سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م وقد تولى الوزارة وحصل على الباشوية أيام الخديو عباس بن طوسون بن محمد على وهو من القلائل الذين رضى عنهم عباس وأشركه مع موصل بك فى بناء القناطر الخيرية، وقد أكرمه عباس فرقاه أولا إلى رتبة صاغ ثم إلى رتبة أميرالاى وعينه ناظرا لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس وهذا كله يعطيه الوزارة

أو النظارة ومعها الباشوية، وقد أكلته الوزارة كما هو عهدها، ومع أنه استمر يعمل فى خدمة مصر إلا أن قدره أخذ يقل لأن لقب الوزير أو الناظر غطى عليه وكل عمل له قبل النظارة.

وكان محترما.. أما بعد الوزارة فقد أصبح سعادة الناظر وإسماعيل باشا أعجب به وأدخله الوزارة بعد ذلك مرارا.

وهذا هو ما أحب أن أقوله فى هذا الحديث، لأن على مبارك قبل الوزارة كان يشعر أنه يخدم بلدا محترما على الرغم من أن مصر فى أيامه كانت خاضعة للدولة العثمانية ثم احتلها الإنجليز إلى جانب الدولة العثمانية، وكل عمل قام به بعد ذلك أصبح صغيرا إلى جانب الوزارة والباشوية، وأخذ على مبارك باشا صورة الوزير الباشا، وبعد الثورة العرابية أصبح على مبارك مواطنا متقوقعا فى هيئة الوزير، ونفر منه رجال الثورة العرابية ولم يأخذه البارودى معه فى الوزارة، وعندما قامت الثورة العرابية نظر إليه الثوار على أنه رجل من رجال الحكومة، وعندما هدد الإنجليز مصر اعتبر من رجال الحكومة، وعندما ذهب إلى الإسكندرية للتوسط بين المصريين والإنجليز نراه رجلا جامدا، فالثائرون يرون أنه رجل من رجال الخديو إسماعيل وكل أعماله أصبحت فى نظر الناس قليلة لأنه عندما أصبح ناظرا أى وزيرا أصبح الناس يطالبونه بالقيام بأعمال ضخمة بل مستحيلة ثم لا يشكرونه بعد ذلك، لأن الخديو إسماعيل كان يرى كل وزرائه رجالا صغارا، وكان زميلا لعثمان باشا رفقى وأمثاله، فالحكومة لاترضى عنه والثوار لا يقدرونه، وقد ذهب إلى الإسكندرية للتوسط لدى الإنجليز وأخذ هناك يجول لكى يصل إلى شىء، ولم يصل إلى شىء ولكنه اشتهر عندنا بصورة الباشا المتحير الغارق فى الوزارة وملبسها غير الجميل، ونحن لم نكن نقدره إلى زمن قريب مع عظيم ما قام به من أعمال وذلك لمجرد أنه كان ناظرا أو وزيرا وباشا، ولو أنه لم يكن باشا ولا وزيرا لقدرناه أكثر، وهذا هو الذى أريد منك أن تذكره دائما ولا تنساه، والفرق جسيم بالطبع بين هذا الفلاح المحترم الذى شق طريقه بالعمل والجهد

والإخلاص، ورجل مثل نوبار باشا الذى كان رجلا محترما جدا ومحمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا ومن إليهم من باشوات العصر، فهؤلاء لم يكونوا يخدمون مصر مع شعورهم أنهم أهم منها فى حين إن على مبارك كان يخدم مصر ويرى أنه خادمها، ولهذا فقد عمل كل ما رأيته من أعمال، فهو دون شك من بناة مصر الحديثة وخدمها الأوفياء، فقد كان - كما رأيت - يعمل باستمرار دون أن يزكى نفسه وصورته التى نراها اليوم فى الكتب صورة وزير من وزراء ذلك العصر وهى صورة لا تعجبنا لأنها فعلا تقل عن حقيقة الرجل كثيرا.

ونحن نعيش اليوم فى مصر المستقلة المحترمة زعيمة العالم العربى ولابد أن يكون عملنا على مستوى مصر هذه، والمطلوب منا كثير جدا لأن مصر المحترمة، اليوم لابد أن تستمر محترمة وعظيمة، وهى لن تستمر فى عظمتها إلا بنا وبعملنا، لأن مصر لم تصل إلى ما هى عليه اليوم مصادفة ومن الممكن جدا أن تنحدر أو تتدهور، والحضارة كائن حى ولابد أن يكون حيا دائما وإلا فهى بطبيعتها ميالة للتدهور وهى إذا تدهورت كان تداركها وبناؤها من جديد أصعب من إنشائها والنهوض بها مرة أخرى والحضارة لا تبنى نفسها بنفسها بل لابد لها من بنائين والبانى الأساسى للحضارة المصرية هو شعب مصر وخاصة الفلاح وهو إنسان حضارى، يبنى حضارة نفسه وحضارة بلاده باستمرار، أى لا يتوقف عن البناء ابدا كما راينا فى حياة على مبارك. وقد سبق أن ذكرت أن كل الزعماء المصريين أبناء فلاحين، وبفضل على مبارك وأمثاله أصبحنا الآن نبنى الحضارة ونحن نعرف ماذا نفعل، ومما يسعدنى أن اقرأ أخبار البناء الثقافى فى مصر ومعظم أخبار مصر حضارية، وإن كانت سياسة فى شكلها ومثال ذلك أننا قرأنا فى جريدة الأهرام يوم (٢٢ نوفمبر ١٩٩٣م) أن الرئيس مبارك ورئيس وزرائه عاطف صدقى قررا فى اجتماعين موسعين برئاسة حسنى مبارك أن مشروع قانون الضريبة الموحدة لن يضيف أعباء على دخول العاملين أو تحت أى مسمى مهما كان المستوى الوظيفى للمواطن، وطلب الرئيس

مبارك عرض مشروعات القوانين الخاصة بالأداء الاقتصادى على اللجان النوعية للحزب الوطنى الديمقراطى لمناقشتها بمشاركة أعضاء اللجان فى مجلس الشعب وأكد الرئيس مبارك فى هذين الاجتماعين احترام التعامل بين الشركات المنتجة والعملاء بالنسبة لأسعار التعاقد لأية سلعة من السلع سواء منتجة من قطاع الأعمال العام أو قطاع الأعمال الخاص مؤكدا أنه لا يجوز رفع سعر السلعة طبقا لتوقيت التسليم. وأكد أن ذلك ينطبق على كافة السلع من سيارات وسلع معمرة كالثلاجات والسخانات ومواد البناء والأسمنت والحديد بعد أن لوحظ إن الشركات تتعاقد بسعر ثم ترفع السعر عند التسليم، وتساءل الرئيس: كيف يتعاقد المواطن على سعر السلعة ثم يهمل هذا التسعير فيما بعد، ولأن الالتزام بسياسة الاقتراض المعمول بها موضحا أنه لن يسمح بعمل قروض جديدة ولمشروعات إنتاجية إلا إذا كانت قادرة على سداد القرض وأعبائه، وأن تلتزم الحكومة بكافة مؤسساتها بعدم السماح بتخلى النسبة الحالية لخدمة الديون فهذه كلها أخبار سياسية فى شكلها ولكنها حضارية فى طبيعتها، وأنت إذا أردت أن تكون من المواطنين الإيجابيين تشارك فيها بطبعك لابد أن تكون رجل حضارة وإلا فابق مكانك وتكفيك وظيفتك التى تتولاها مهما كان راتبها، فلا فرق عندنا بين مواطن ومواطن إلا نسبة المساهمة فى بناء الحضارة، وهذا هو المقياس فلا يوجد عندنا مقياس آخر.